جامعة القاهرة

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

الأبنيةُ والتراكيبُ الدّالّةُ على الكَمّ في القُرآن الكريم

دِراسةٌ صَرْفيّةٌ نَحْويّةٌ

Quantitative Forms and Structures in the Holy Quran

A Morpho – Syntactic Study

الباحث: رامي أحمد السيد

رسالة للحصول على درجة الماچستير في الآداب

إشراف:

أ.د. وفاء كامل فايد
أستاذة اللسانيات بآداب القاهرة
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

٢٠١٧

تقديم الاسم على فعل الشرط

قال سيبويه: "اعلم أن حروف الجزاء يقبح أن تتقدم الأسماء فيها قبل الأفعال ....، ويجوز الفرق في الكلام في (إنْ) إذا لم تجزم في اللفظ نحو قوله:

عاوِدْ هَراةَ وإنْ معمورُها خَرِبا"[1]

قال أبو علي الفارسي: "أي: يجوزُ تقديمُ الاسم على الفعل إذا لم تجزم الفعل، نحوَ (إنْ زيدٌ فعل فعلْتُ)"[2] فإذا ما قدم الاسم على الفعل عدُوا الفعل الذي ينبغي أن يوالي أداة الشرط مقدرا! نحو ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ [الانفطار] إذ يقدرون (إذا -انفطرت- السماء انفطرت)! و(إذا -انتثرت- الكواكب انتثرت)[3]! على حذف فعل الشرط المفسر بالفعل المذكور بعده، ذلك عند الجمهور، قال مكي بن ابي طالب: "قوله ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ... ۝١٠٣﴾[4] [البقرة] (أن) في موضع رفع بفعل مضمر، تقديره: (ولو وقع إيمانهم)، و(لو) حقها أن يليها الفعل، إما مضمرًا أو مظهرًا؛ لأن فيها معنى الشرط، والشرط بالفعل أولى، وكذلك قوله: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ ... ۝٦﴾ [التوبة] (أحد): مرفوع بفعل مضمر، تقديره: (وإن -استجارك- أحد من المشركين استجارك)! وكذلك عند **البصريين**[5]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق]، و﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ[6] كُوِّرَتۡ ۝١﴾ [التكوير]، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الانفطار] وشبه ذلك كله مرفوع بفعل مضمر؛ لأن (إذا) فيها معنى المجازاة، فهي بالفعل أولى، فالفعل مضمر بعدها، وهو الرافع للاسم، وهو كثير في القرآن، فاعرفه ولا بد لـ(لو) من جواب مضمر أو مظهر، وإنما لم تجزم (لو) على ما فيها من معنى الشرط؛ لأنها خالفت حروفَ الشرط، وذلك أنها لا ترد الماضي بمعنى الاستقبال كما ترده حروف الشرط؛ إذ الشرط لا يكون إلا بمستقبل، فامتنعت من العمل،

---

[1] سيبويه، الكتاب (١١٢/٣)، ونحوه عند ابن السراج، الأصول في النحو (٢٣٢/٢).

[2] أبو عليّ الفارسي، التعليقة على كتاب سيبويه (٢١٧/٢).

[3] انظر ابن جني، الخصائص (٣٨٢/٢).

[4] الآية كاملة: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ۝١٠٣﴾ [البقرة].

[5] "وعند الكوفيين أنه مرفوع بالفعل بعده، وهو فاعل متقدم على فعله. أو مبتدأ خبره ما بعده" فاضل السامرائي، معاني النحو (١٠٢/٤).

[6] في الأصل: السماء!

لذلك قوله: ﴿...لَمَثُوبَةٌ ...﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة] مبتدأ، و﴿...خَيْرٌ ...﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة] خبره، واللام جواب (لو)"[١].

هذا، وقد اعترض عليه فاضل السامرائي؛ إذ إنهم يفسرون الشيء بنفسه، واجتهد في تبيين الفرق بين تقديم الاسم على فعل الشرط أو عدم تقديمه، فقال: "إنه بموجب هذا التقدير لا فرق بين قولنا (إذا جاءك محمد فأكرمه) و(إذا محمد جاءك فأكرمه)، وقوله ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق] و(إذا انشقت السماء) فيكون تقديم الاسم وتأخيره واحدًا! ولا غرض لذلك سوى التقدير المفسد لجمال التعبير وفصاحته"[٢].

وخلص إلى أن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام المختلفة أوجههما، إذ قال: "وعلى أي حال فالمعنى في التعبيرين مختلف ولا شك. إن تقديم الاسم على فعل الشرط إنما هو **للعناية والاهتمام** الذي هو الغرض من التقديم عمومًا، **وتختلف أوجه العناية هذه**، فقد يكون **التقديم للتخصيص**، وهو أهم غرض للتقديم، وذلك نحو قولنا: (إذا محمد جاءك فأكرمه) و(إذا جاءك محمد فأكرمه)، فإن الجملة الأولى تفيد التخصيص، ومعناه أن الإكرام مختص بمحمد دون غيره، فإذا جاءك غيره فلا تكرمه، أما الثانية فهو طلب الإكرام لمحمد من غير تخصيص له به، والمعنى: أكرم محمدًا عند مجيئه، هو أي المخاطب، غير منهيٍّ عن إكرام غيره، وهو كقولنا (أكرمْ محمدًا) و(محمدًا أكرمْ) فإن في الثانية تخصيصًا دون الأولى"[٣].

وذلك وارد مع (لو) و(إن) و(إذا) على سواء:

فمع (لو) نحو قوله -تعالى-: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ ...﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء]، قال أبو عبيدة: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ ...﴿١٠٠﴾﴾ معناه: (... لو تملكون أنتم)"[٤]. وقال الزمخشري: "إنّ (تملكون) فيه دلالة على الاختصاص، وإن الناس هم المختصون بالشُّحّ المتبالغ ... لقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم.

---

[١] مكي بن أبي طالب، مشكل إعراب القرآن (١/١٠٧-١٠٨).

(أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي. مشكل إعراب القرآن. المحقق: د. حاتم صالح الضامن. ط٢. بيروت: مؤسسة الرسالة. ١٤٠٥ هـ).

[٢] فاضل السامرائي، معاني النحو (٤/١٠٣).

[٣] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[٤] أبو عبيدة، مجاز القرآن (١/٣٩٢).

(أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى. مجاز القرآن. المحقق: محمد فواد سزگين. القاهرة: مكتبة الخانجي. ١٣٨١ هـ).

وقيل: هو لأهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها"[1].

ومع (إن) في نحو قوله -تعالى-: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ٦﴾ [التوبة] قال الزجاج: "وأما الإعراب في (أحد) مع (إنْ) فالرفع بفعل مضمر الذي ظهر يفسره. المعنى: (وإن استجارك أحد). ومن زعم أنه يرفع أحدًا بالابتداء فخطأ؛ لأن الجزاء لا يتخطى ما يرفع بالابتداء ويعمل فيما بعده، فلو أظهرت المستقبل لقلت: (إن أحد يقم أكرمه)، ولا يجوز: (إن يقم أحد زيد يقم)! لا يجوز أن ترفع زيدًا بفعل مضمر الذي ظهر يفسره ويجزم. وإنما جاز في (إنْ)؛ لأن (إنْ) يلزمها الفعل. وجواب الجزاء يكون بالفعل وغيره. ولا يجوز أن تضمر وتجزم بعد المبتدأ؛ لأنك تقول ههنا: (إن تأتني فزيد يقوم)، فالموضع موضع ابتداء. وإنما يجوز الفصل في باب (إنْ)؛ لأن (إن) أمّ الجزاء، ولا تزول عنه إلى غيره، فأما أخواتها فلا يجوز ذلك فيها إلا في الشعر، قال عدي بن زيد:

فمتى واغلٌ ينزهم -يحيّو *م* ه، وتعطف عليه كأسُ الساقي"[2]

وفي قوله -تعالى-: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ١٧٦﴾ [النساء]، قال المجاشعي: "ارتفع (امْرُؤٌ) بإضمار فعلٍ يفسّره ما بعده تقديره: (إن -هلك- امرؤ هلك)! ولا يجوز إظهاره؛ لأن الثاني يغني عنه. وقال الأخفش: "هو مبتدأ، و (هَلَكَ) خبره". والأول أولى؛ لأن الشرط بالفعل أولى"[3].

وكر (لو أنهم صبروا)

---

(1) الزمخشري، الكشاف (٦٩٦/٢). ولعرفة الفرق بين دخولها على الاسم الصريح ودخولها على ~~الفعل~~ ان وعمولها انظر السيوطي الإتقان ٢/ ٢٨٢

(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه (٤٣١/٢).

(3) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم ص ١٩٩.

(علي بن فَضّال بن علي بن غالب المُجَاشِعِي القيرواني. أبو الحسن. النُكت في القرآن الكريم. في معاني القرآن الكريم وإعرابه. درسه وحققه: د. عبدالله عبدالقادر الطويل. ط١. بيروت: دار الكتب العلمية. ٢٠٠٧ م).

﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ [النساء]، قال الطبري: "يعني بذلك جلَّ ثناؤه: (وإن خافتِ امرأة من بعلها)"[١].

ومع (إذا) كما في قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾ [المرسلات]، وقوله -تعالى-: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ[٢] عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير]، وقوله -تعالى-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾ [الانفطار]، وقوله -تعالى-: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾﴾ [الانشقاق].

والملاحظ مع (إذا) أن جميع الآيات ستكون في يوم القيامة، وأن كل آية ثلاث كلمات فحسب، وأنه لم ترد آية إلا وقد عطف عليها مثلها بـ(إذا)، وأن الفاصلة فيها هي الفعل الماضي المفسِّر. وتقدير الآيات على الترتيب:

(فإذا طمست النجوم)[٣]، (وإذا فرجت السماء فرجت، وإذا نسفت الجبال نسفت، وإذا أقتت الرسل أقتت)[٤].

(إذا كورت الشمس)[٥]، (وإذا انكدرت النجوم)[٦]، (وإذا سيرت الجبال سيرت، وإذا عطلت

---

[١] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن (٩/٢٦٧).

[٢] "العشار: جمع عشراء، وهي الناقة الحامل التي مر لحملها عشرة أشهر، وهي أنفَسُ ما عند العرب وأعزها، فلا تعطَّل إلا من شدة الهول! وتعطيلها هو تركها سائبة أي: ترك حلبِها" ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٤٥٥).

[٣] العكبري، التبيان في إعراب القرآن (٢/١٢٦٣).

[٤] الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٣٠/٥٥٧).

(محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي. تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن. أشرف عليه وراجعه: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي. ط١. بيروت – لبنان: دار طوق النجاة. ٢٠٠١ م).

[٥] المبرد، المقتضب (٢/٧٩).

[٦] ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/١٥٠).

العشار عطلت، وإذا حشرت الوحوش حشرت، وإذا سجرت•البحار سجرت، وإذا زوجت النفوس زوجت، وإذا سئلت الموءودة سئلت ... وإذا نشرت الصحف نشرت، وإذا كشطت السماء كشطت، وإذا سعرت الجحيم سعرت، وإذا أزلفت الجنة أزلفت) [١].

و (إذا انفطرت السماء[٢] انفطرت[٣])، (وإذا انتثرت الكواكب)[٤]، (وإذا فجرت البحار فجرت، فجرت، وإذا بعثرت القبور بعثرت)[٥].

و (إذا انشقت السماء[٦] ... وإذا مدت الأرض مدت)[٧]

لقد حاولت رصد تقدير الآيات عند أول من قدر لها محذوفًا باستعمال البرامج الحاسوبية، ولقد كان يعجبني من يكتفي في التقدير بتقديم الفعل على الاسم من دون إعادة الفعل، لئلا يجمع بين العوض والمعوض منه، وإن كانوا قلة، وهم: الفراء، والمبرد، والباقولي، والعكبري، وابن عاشور ، وابن عثيمين.

---

[١] الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (١٧٩/٣١)، وانظر أبا شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني ص ٥٧٠.

[٢] الباقولي، إعراب القرآن (٣٧/١).

(علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن نور الدين جامع العلوم الأصفهاني الباقولي. إعراب القرآن -المنسوب إلى الزجاج- حققه ودرسه: إبراهيم الأبياري. ط٤. دار الكتب الإسلامية: القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: دار الكتب اللبنانية. ١٤٢٠ هـ).

[٣] الشاطبي، شرح ألفية ابن مالك (٩١/٤)، وقال: "إلا أن هذا المقدَّر لا ينطق به لقيام الظاهر مقامه. وهذا قد مرَّ له في باب الاشتغال".

(أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي. المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك). محقق الجزء المشار إليه: د. محمد إبراهيم البنا - د. عبدالمجيد قطامش. ط١. مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى. ٢٠٠٧ م).

[٤] الباقولي، إعراب القرآن (٣٧/١)، وابن عثيمين، شرح ألفية ابن مالك (١٠٣/٣)، لكنه انتصر لمذهب الكوفيين إذ قال معربًا ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار]: "(السماء): مبتدأ، وجملة الفعل بعده خبر ، وهذا هو الصحيح؛ لأننا إذا جعلنا (السماء) مبتدأ وجملة (انفطرت) خبرًا، فكأننا أعدنا السماء مرتين، مرة بالاسم الظاهر ومرة بالاسم الضمير ، فيكون هذا أقوى، كأننا أسندنا الفعل مرتين، وهذا هو الصحيح، وهو أن نقول: يجوز أن تضاف (إذا) إلى الجمل الأسمية، ولا فرق في ذلك بين أن تكون الجملة الاسمية خبرها فعل أو خبرها اسم".

[٥] الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن (٢٠٤/٣١).

[٦] الفراء، معاني القرآن (٢٥٠/٣)، والمبرد، المقتضب (٧٩/٢)، وزاد: "ولولا هذا الفعل لم يصلح أن يقع بعد إذا لما فيها من معنى الجزاء".

[٧] ابن يعيش، شرح المفصل للزمخشري (٢٤٠/١).

قال ابن عاشور في تفسيره سورة التكوير: "واعلم أن تقديم المسند إليه في الجمل الثنتي عشرة المفتتحات بكلمة (إذا) من قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير] إلى هنا، والإخبار عنه بالمسند الفعليّ مع إمكان أن يقال: (إذا كُوِّرتِ الشمس ۞ وإذا انكدرتِ النجوم ..) وهكذا كما قال: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ [الرحمن] -أن ذلك **التقديم لإفادة الاهتمام بتلك الأخبار المجعولة علاماتٍ ليوم البعث؛ توسّلاً بالاهتمام بأشراطه إلى الاهتمام به وتحقيق وقوعه**. وإن إطالة ذكر تلك الجُمَل تشويقٌ للجواب الواقع بعدها بقوله: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير] وجملة: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير] يتنازع التعلق به كلمات (إذا) المتكررة.

وعن عمر بن الخطاب: أنه قرأ أول هذه السورة فلما بلغ ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير] - قال: لهذا أجريت القصة! أي: هو جواب القسم، ومعنى (علمت) أنها تعلم بما أحضرت فتعلمه"[١]، قال القرطبي -بعد إيراده قصة عمر-: "فالمعنى على هذا: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير]، وكانت هذه الأشياء -﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾ [التكوير] من عملها"[٢].

إن ما توصل إليه ابن عاشور قريب مما توصل إليه فاضل السامرائي -لاحقًا- إذ قال: "وقد يكون التقديم للتهويل، وذلك نحو قوله -تعالى-: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق]، وقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ٤﴾ [الانفطار]، فهذه من مواطن التهويل، وذلك أن انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجير البحار وبعثرة القبور، كل ذلك مما يؤدي إلى الهول الكبير والرعب، **فقدمها لهذا الغرض**، ألا ترى أنه قال: ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ١﴾ [الزلزلة]، فلم يقدم الاسم، وذلك **لأن مشهد الزّلازل واقعٌ متكررٌ على الأعوام والأيام، وإن كانت هذه الزّلزلة أعظم منها جميعًا، بخلاف المشاهد التي ذكرها، فإنه لم يحدث** أنِ انشقت السماء، **أو انفطرت أو انتثرت النجوم أو تفجرت البحار، فالهول والفزع ههنا أكبر، وأكبر، فقدم ما قدم للتهويل**"[٣] ثم ذكر أغراضًا أخرى نحو التعظيم، وتعجيل المسرة أو المساءة والتحقير.

ولكن يجمع بين جميع الأمثلة التي كانت أداة شرطِها (لو) أو (إنْ) أو (إذَا) -بالإضافة إلى دلالاتها الخاصة- أنها كلها دالة على افتراض أو على ندرة حدوث الحدث أو قلته؛ فمع (لو) في

---

[١] ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٠/١٥٠).

[٢] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٣٦) **من دون إسنادٍ** لقول عمرَ، وهو أقدم نقلٍ توصّلت إليه!

[٣] فاضل السامرائي، معاني النحو (٤/١٠٤).

قولـه –تعـالى–: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء] إنما هو مجرد فرضٍ لا يكون، لقوم بعينهم، وجيء بالمضارع بعده لاستحضار الصورة، وهو الموضع الوحيد الذي جيء به بالمضارع مع مختلف الأدوات.

ومـع (إنْ) فـي قولـه –تعـالى–: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التوبة] إنمـا هـو لقلـة حـدوث ذلـك مـن استجارة وإجارة ومأمن إذ لا يكون إلا في الحرب وتحت ظروف خاصة[1]، بدلالة قوله –تعالى– قبلها: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة].

وكذلك في قولـه –تعـالى–: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [النسـاء] في شأن المواريث مع **الكلالـة** الذي لا ولد لـه ومن ثم لا والد لـه؛ إذ لا ميراث للإخوة مع الأب، فسواء أعلا نسبه أم نزل لا أحد حي من أصوله يرثه، بل تحيطه الورثة من حواليه وهم إخوته كلالةً كالإكليل المحيط بالرأس، أي: كما يقولون: هو مقطوع من شجرة! فإنما يرث ويورّث أفقيًا لا رأسيًا! ومعلوم قلة هذا النوع، فناسب ذلك أن يؤخر الحديث عنه إلى آخر آية في سورة النساء التي تأخّر نزولها كذلك حتى سمّاها النبي –صلى الله عليه وسلم– (آية الصيف)[2] بوقت نزولها المغاير لنزول أول السورة شتاءً، وقد **فُصل** بينها وبين الحديث عن المواريث أول السورة بحديث طويل عن اليهود والمنافقين والنصارى **فصلا** مناسبًا للفصل بين من يورث كلالة وولده ووالده!

وفـي قولـه –تعـالى–: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النساء]، معلوم أن خوف النشوز في النساء أكثر، إذ إنّ للرجل قوامته وخلاصه بيده، فهو الذي بيده عقدة النكاح، وإن كان النشوز واقعًا من الرجال، كما في قولـه –تعالى–: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ

---

(1) استنبطها الشعراوي بدلالة تقديم الاسم، تفسير الشعراوي (٨/٤٨٩١).

(2) الحديث صحيح، في مسند أحمد (١/٢٠٣) طبعة أحمد شاكر، وفي صحيح مسلم (١/٣٩٦).

حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [النساء] فإنه أقل أيضا بدلالة الشرط بالاسم الموصول في آية نشوز النساء، وأيضا من خلال استعمال الماضي مع نشوز الرجال (خافت) والمضارع مع نشوز النساء (تخافون)، كذلك الحديث عن امرأة مفردة -وإن كان مرادًا الجنس-، في مقابل (تخافون) بالتنصيص على إرادة الجمع، حتى إن مع وقوع النشوز من الرجال فقد بقيت غلبة استعمال (ناشز) للأنثى والذكر معًا، وإن كان القياس عدم تذكير الصفة للمراة إذا ما اختصت بها نحو: حامِل وطالق. فقلّ أن يقال: (امرأة ناشزة) وكأنها صفة اختصت بها[1]! هذا، غير أن ساحات محاكم الأسرة سواء الشرعية أم غيرها لا يوجد بها ما يعرف برفع قضية نشوز للرجل.

ومع (إذا) نجد الآيات كثيرة، وكلها في سياق الحديث عن يوم القيامة، وإنما جيء بـ(إذا) للقطع بحصول الفعل بعده، وكلها لا تحصل إلا مرة واحدة يوم القيامة، وقدم الاسم لتخصيصها بالتهويل ولبيان أن هذه الأجرام العظيمة ستحل بها الغيَر مع أننا لم نعتد مشاهدة الغيَر عليها بل ربما لم يتصورها الإنسان قبل بلاغ القرآن. وقولُ فاضل السامرائي: "ألا ترى أنه قال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة]، فلم يقدم الاسم، وذلك **لأن مشهد الزّلازل واقعٌ متكررٌ على الأعوام والأيام، وإن كانت هذه الزّلزلة أعظم منها جميعًا، بخلاف المشاهد التي ذكرها، فإنه لم يحدث** أنِ انشقت السماء، **أو انفطرت أو انتثرت النجوم أو تفجرت البحار، فالهول والفزع ههنا أكبر، وأكبر، فقدم ما قدم للتهويل**"[2] في غاية التوفيق، لولا ورود آية في انشقاق السماء في سياق الحديث عن القيامة، في حيز الشرط بتقديم الفعل على الاسم، وهي قوله -تعالى-: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن] ووردها كذلك فيه **إيماءة** إلى ما يحدث في عصرنا من رصد شكل انفجارات النجوم التي طالما تحدث في السماء كما تحدث الزلازل في الأرض، والذي كانت ترجمة وصفِ شكله: (وردة حمراء مدهنة)[3]، إذ يبقى مثل ذلك شاهدًا

---

[1] انظر ابن الأنباري، المذكر والمؤنث (١/١٢٥، ١٤٤).

(أبو بكر، محمد بن القاسم بن محمد الأنباري. المذكر والمؤنث. المحقق: محمد عبدالخالق عضيمة، مراجعة: د. رمضان عبدالتواب. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث. ١٩٨١ م).

[2] فاضل السامرائي، معاني النحو (٤/١٠٤)، وقد سبق ذكره.

[3] "من رحمة الله -تعالى- ربنا أنه أبقى لنا من الشواهد الحسية، والظواهر المرئية في صفحة الكون ما يؤكد على! إمكانية حدوث كل ما أخبر عنه في كتابه الخاتم عن مظاهر الآخرة، ومنها تصدع السماء وانشقاقها

حسيًا على ما هو أكبر منه وهو من جنسه، ولذلك أكد الزلزال الأكبر بالمصدر ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة] إذ هي الزلزلة الكبرى النهائية التي تكون ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ [الواقعة]، وكذلك الانشقاق الأكبر النهائي يكون يومها، وهو المعبر عنه بـ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق]، وإنما لم يرد انشقاق السماء حينما تصير وردة كالدهان بتقديم (السماء) على (انشقت) لأنه طالما يحدث في السماء، وقد أرانا الله آياته في ذلك بالتلسكوبات ومن ثم بتوثيق ما يرونه في الآفاق، أما الانشقاق الأكبر فلسوف يكون للسماء نفسها فيكون مشاهدًا للأحياء رأي العين ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ [المعارج]، ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾ [الرحمن]!



حتى تصير ﴿... وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن]. [... إذ] أرسل تليسكوب هابل الفضائي، فأرسل إلينا عدة صور لعدد من النجوم عند انفجارها، ففي ٣١ أكتوبر سنة ١٩٩٩م قامت مؤسسة الفضاء الأمريكية (ناسا) بنشر عدد من الصور التي بعثها هذا التليسكوب الفضائي لنجوم في مرحلة الانفجار في سديم يعرف باسم (سديم عين القط)، وهذه النجوم على مسافة منا تقدر بحوالي ثلاثة آلاف من السنين الضوئية! وكل نجمٍ من تلك النجوم المنفجرة يبدو في الصورة على هيئة وردة حمراء عملاقة، لها من صفاء اللون ما جعل العلماء يصفونها بالتعبير الذي ترجمته: (وردة حمراء مدهنة) وكأنه التعبير القرآني بدقته اللفظية والدلالية"! زغلول النجار، الإعجاز العلمي (٦٦/١-٦٧)، نقلا عن مجدي فتحي السيد، الإعجاز العلمي ص ٥٣٣، ٥٣٤.

(مجدي فتحي السيد. الإعجاز العلمي في القرآن الكريم. قرأه وراجعه: أ. د. زغلول راغب محمد النجار. والمراجعة العلمية للسادة الدكاترة: سلوى فهمي بدر، وعادل منصور الجندي، وعمرو محمد المدني. ومحمد كمال زهرة. مصر: دار الصحابة للتراث بطنطا).